علاقة التراث بالحداثة وإشكالية الرفض والقبول

د.علي لطرش
أستاذ محاضر أ
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة

Résumé

Lesintellectuels arabes se sont divise entre eut à propos de leurs patrimoine culturelles. Le conflit des générations à toujours était un sujet de débat depuis le deuxième siècle à ce jour.ils ont trouvé que le patrimoine littéraire arabe comme une arme pour contribuer à la sortie de la nation du sous-développement. Cependant entre les intellectuels arabes c'est former trois courant de penser due a la diversité de leurs culture, ainsi que certains d'entre eux ont un sentiment d'infériorité face au progrès réalisés dans les sociétés européennes dans divers domaines scientifiques, littéraires et économiques.

Le fait que le différent dans le mouvement intellectuel face à la renaissance arabe au sujet de notre patrimoine est essentiellement une lutte entre le fondamentalisme traditionnel moderniste arabe et européenne.Quant à soulever la question du différent entre la pensée des symboles de la renaissance arabe est en fait une différence entre la peur et le désir, la peur des menaces de l'Occident et le désir de prendre les fruits du développement et de la civilisation.La modernité ne signifie pas une rupture avec la tradition, il y a beaucoup de chercheurs conviennent que le patrimoine soit la lecture critique de lecture fonctionne conscients de l'esprit du temps et prendre en compte leurs besoins Et généralement pas de désaccord entre ces intellectuels arabes sur la fin.

الكلمات المفتاحية: التراث– النهضة – الأدب – الموروث - الثقافي – الحضارة – الغرب – فكر –النخبة - الأمة.

إن علاقة ثقافة الأجداد بالأحفاد قضية قديمة كانت وما زالت تثير النقاش والجدال من حيث فاعليتها في الأجيال اللاحقة إلى حين هذه اللحظة، وكان قد أثارها سابقا أبوعمروبن العلاء، وبعده تلميذه الأصمعي في القرن الثاني الهجري حول علاقة الموروث الشعري السابق بالجديد اللاحق، ثم الجاحظ وابن قتيبة في القرن الثالثفي أكثر من مكان.

وقد أثيرت حديثا في أوساط المثقفين و الدارسين بالخصوص منذ ظهور التباشير الأولى للنهضة العربية الحديثة، و لم تحظ أية قضية بالنقاش والجدال الواسع والطويل في أوساط المثقفين والدارسين، كما حظيت هذه القضية وذلك لما تحمله من إشكالية وأهمية وحضور في الفكر العربي الحديث.

- **بدايات الوعي بالتراث:**

كان دافع الرجوع إلى التراث عامة والأدبي بالخصوص في بداية الأمر مجرد إحيائه وبعثه دون أن تكون وراء ذلك غايات وأبعادإيديولوجية أو فكرية مقصودةوإنماكانت غاية ذلك إحياء الماضي الثقافي العربي العظيم وبعث أمجاده ومحاولة إثارة المشاعر القومية وإبراز التباين العرقي والثقافي لمنع الاندماج في كيان وهويات الثقافات الأخرى، حيث كانت معظم البلدان العربية تحت وصاية الدولة العثمانية ودول أوروبية، وقد زاد الوعي بالتراث واشتدت الحاجة إليه وزاد الحنين إليه بالخصوص بعد الحرب العالمية الأولى والثانية نتيجة تلك الظروف السياسية والاجتماعية الصعبة التي كانت تعيشها المجتمعات العربيةعامةوالشعب الفلسطيني بالخصوص، فراحت نخبة من المثقفين والدارسين تبحث عن الأسلحةالفكرية لمجابهة تلك التحديات والبحث عن البدائل، فكان التراث الأدبيأهمالأسلحة والبدائل تعويضا عن الضعف الفكري والركود الثقافي السائد، ولذلك يلاحظ أن البحوث والدراسات التي توجهت إلى التراث الأدبي أخذت تزداد وتتوسع أكثر خلال النصفالأول من القرن العشرين،حيث توجه العديد من الدارسين إليه يشرحونه ويعيدون النظر في قيمته وجدواه وفي منهج دراسته وذلك من أجل استخلاص منه ما يمكن أن يسد الفراغ الثقافي والفكري المعطل الراكد ويشحذ الهمم ويعيد الثقة إلى النفوس التي يئستمن شدة النكبات والمحن التي طالت.

وقد برز النقاش حولجدوى التراث عقب الفترة المظلمة التي عاشتها المجتمعات العربية خلال عصر الضعف، وبعد اتصال العرب بالغرب عقب حملة نابليون على مصر وما تبعها من اتصال واحتكاك ثقافي مستمر، حيث ازداد وعي النخبة المثقفة أكثر بواقع التخلف الذي يعيشه مجتمعها، وقد لاحظت تلك الطفرة التي حققتها المجتمعات الأوروبية في المجال الثقافي والعلمي والاقتصادي، وقد زال ذلك الزعم والوهم الذي كان يسكن عقول بعض المثقفين المسلمين بأن الحضارة العربية الإسلامية أرقى الحضارات الأخرى، وبدا الإحساس بالتخلف يسري في نفوس أولئك الرواد الذين بادروا بتأسيس أركان النهضة العربية الحديثة، وبدا النقاش يدور شيئا فشيئا حول كيفية النهوض بالأمة، والخروج من واقع التخلف عملا بما قامتبه الأمم الغربية في تحقيق تقدمها الكبير بعد أن عاشت هي أيضا قرونا غير قليلة تحت جنح ليل الإقطاع وشعوذة رجال الدين.

- **انشعاب الموقف من التراث:**

غير أن نظرة الدارسين إلى هذا الموروث الأدبي من حيث جدواه ومزاياه لم تكن واحدة نتيجة بعض التباين في المشارب الثقافية والتعليمية، فهم ينتمون

إلى فترات متباينة وإلى تيارات فكرية وإيديولوجية سياسية مختلفة تصل أحيانا إلى حد التناقض، فإن كان هناك من يشيد بقيمته ويدعو إلى ضرورة الرجوع إليه والتمسك به، فإن هناك من يشكك في قيمته ويهون من مزاياه ويراه من ثقافة الماضي، تجاوزه الزمن وأصبح بعيدا عن النهضة الحديثة لا يحقق الرقي والتقدم، وسوف نحاول عرض هذه الرؤى المتباينة لهؤلاء الحداثيين كلا حسب قناعته ووعيه بتراثه.

لقد تباينت رؤى ومواقف المثقفين رواد النهضة من التراث وكان من هؤلاء الرواد من التفت إلى الوراء ورأي ان للعرب والمسلمين مادة تراثية ثقافية وعلمية ضخمة غنية بكنوز المعرفة، ويمكن للعرب بالرجوع إليها والاعتماد عليها أن تكون لهم السند الأساسيإذا ما أحسن استغلالها للخروج من واقع التخلف الذي تعيشه المجتمعات العربية، ويذهب أصحاب هذا الرأيأن سبب الضعف والتخلف الذي أصابالأمة العربية أنما يعود أساساإلى الانحراف عن هذا التراث وإهمال مافيه من ثروة عقليةوعلمية كانت مصدر إشعاع حضاري يشهد له التاريخ وأن الضعف الذي آل إليه المسلمون فيما بعد إنما يعود إلى ابتعادهم عن تراثهم وعن نهج أسلافهم الذين أسهموا في تأسيس الحضارة العالمية التي ما زال العديد من رموزها حيا يشهد لهم بذلك إلى اليوم[1].

غير أن هناك من هؤلاء من نظر إلى المسألة من موقع مختلف عن هذا الطرح وكان الرأي الأصح عند أصحاب هذه النظرة هو الأخذ بأسس وقواعد الحضارة الغربية الراقية، فالعمل بهذه الأسس والقواعد في نظرهم هو الضمان لرقينا وتطورنا والخروج مما نعيشه من تخلف كبير، وأن الرجوع إلى التراث والاعتماد عليه لا يضمن لنا الرقي الذي ننشده، بل سوف يبقينا على ما نحن عليه من تخلف وتقهقر كبيرين[2]، فتشعبت الآراء إذن وتباينت وجهات النظر حول الموضوع.

وقد ارتبط التباين حول الموقف من التراث بالطلائع الأولى للبعثات العلمية إلى الغرب والتي أخذت تستلهم فكره النظري وتوظفه في خطابها الحداثي،حيث لم يعد المنطلق الوحيد لبناء النهضة عند بعض هؤلاء المثقفين:»هوالأصول التراثية وحدها، بل أصبح النموذج الغربي يفرض نفسه كأصل جديد ينتمي إلى المستقبل وليس إلى الماضي 3.

هنا وقع شبه تصادم بين النزعة المحافظة ونزعة التجديد وبرزت ازدواجية النظرة إلى التراث، وقد ازداد النقاش وتوسع الخلاف عند أجيال المثقفين المتتالية وخاصة منذ مطلع القرن العشرين بعد أن ظهرت نخبة من المثقفين الشباب المتخرجين من المدارس الأوروبيةومن المعاهد الغربية التي أنشئت في بعض البلدان العربية كمصرولبنان، حيث وقف فريق من المثقفين المحافظين أمام هؤلاء الشباب يمنعونهم من ذلك التوجه ويحثونهمعلى التمسك بتقاليد الثقافة العربية الإسلامية وكثيرا ما تبادل الفريقان التهم، ونعت كل طرف لآخر بنعوت شتى، وتعد معارك ومجادلات سلامة موسى مع الرافعي، وزكي مبارك ومعارك طه حسين الأدبية مع الرافعي، واحمد أمين مع زكي مبارك نماذج لهذا الصراع 4.

وتتكون أغلب رموز التيار المحافظ من خريجي الأزهر ومن المؤسسات التعليمية الحكومية التقليدية المحافظة، وكان تعليم هذا التيار قائما على الطرق التقليدية العتيقة ولم يكن بالطرق العصرية الحية التي تخلق في شخصية المتعلم الوعي والقدرة على الملاحظة الدقيقة وحسن الفهم والحكم، ولم تكن ثقافته من المادة التراثية الحقيقية الحية الأصلية وإنما كان أغلب ما تعلموه وعرفوه من تراث فترة

الانحطاط فيعهد المماليك والأتراك المتسم بالركاكة والضعف الكبير[5].

فالثقافة في هذه الحقبة وباستثناء القليل فقدت حيويتها وتوقف فيها الإبداعوأصابهاضعف كبير، فدخلت فيها الخرافات وألوان الغيبيات وغاب فيها العقل النير الذي كان حاضرا في التراث الحقيقي القديم، وقد امتزجت أحيانا بالتقديس الديني وأثقلت الكتابة بألوان المحسنات والزخارف اللفظية وغاب المضمون.

وقد أعطى المحافظون لخصومهم بثقافتهم تلك، وبتصوراتهم للتراث صورة مشوهة غير حقيقية للتراث العربي الإسلامي الذي كان يحجبه الغبار لم يبعث بعد،حيثأثاروا فيهم النفور والتشكيك في مدى فاعليته. فكان ذلك سبب ابتعادهم عن موروثهم وميلهم إلى الثقافة الغربية كبديل.

وتجدر الإشارة هنا إلىأنه وبالرغم مما في موقف هؤلاء المحافظين من فهم ضيق وأحيانا اعتقاد خاطئ وغلو في التشبث بالتراث إلى حد تقديسه أحيانا، فان في موقفهم هذا شيء من التبرير ذلك أن المجتمع العربي عاش مدى قرون في صراع مع الغزو الأجنبي الأوروبي وتحرشاته المتتالية،حيث لم تقتصر أطماع الغزاة على الاحتلال العسكري والنهب الاقتصادي بل حمل عدوانه كذلك محاولة أضعاف الهوية وتشويه العقيدة فكان أن عاد هؤلاء إلى تراثهم للحفاظ على المقومات وذلك بهدف تجنب الخطر الذي أصبح يهدد أمتهم وفيه كذلك نوعمن التسلح والعزاء النفسي، أو هو بمثابة تعويض عما يشعرون به من تأخر وتخلفكبير، لذلك راح هؤلاء المحافظون يغالون في تقديس تراثهم وتمجيده.

ويبرز نعيم اليافي هذا الموقف الخاص بانكماش المحافظين وتشبثهم بتراثهم قائلا:» لقد أوجدت حساسيات الفترة وظروفها أمام الوضع المتردي أولا وأمام الغزو الاستعماري بشتى صوره ومخاطره ثانيا مناخا من نوع خاص جعل الردة نحو الموروث القديم دليل صحة ثقافية ونفسية وملاذا يحمي الشخصية ويمسكها، جعل من إحياء الموروث وجعل العين عليه والهروب إليه استقطابا كاملا للتجربة العربية وتحقيقا للذات العربية»[6].فتشبث المحافظين بتراثهم هنا لم يصدر:» عن جمود أو تعصب ولا عن جهل أو ضيق أفق،وإنما كان موقف المدافع أمام هجوم مدبر ولا بد للمدافع من التشدد والصلابة وعدم التفريط « [7].

وبالمقابل فقد تشدد التيار الثاني المتأثر بالثقافة الغربية الذي نبذ التراث وهون من مفعوله ومن قيمته، ففي موقفهم هذا شيء من التبرير لأنهم لم يضعوا أيديهم على حقيقة تراثهم العربي وما عرفوه منه وتعلموه إنما كان بالطرق التقليدية العتيقة الجامدة التي لا تحببه لهم ولا تكشف عن وجهه الحقيقي، وعلى يد شيوخ محافظين ينتمون في ثقافتهم إلى عصر الضعف ولم تكن ثقافتهم صورة من التراث الحقيقي النير[8].

وهو الشيء الذي افقدهم الثقة في جدوى هذا التراث وولد في نفوسهم النقمة والثورة عليه،وزادهم ذلكإعجابا بالحضارة الغربية وعمق في نفوسهم ذلك الإعجاب ما تعلموه من الثقافة والعلوم الغربية بالطرق الحية،وبما شاهدوه من مظاهر الرقي الحضاري والثقافي الذي أبهرهم.

ولم يقف هؤلاء عند حد رفض التراث بالصفة المذكورة في الخطاب النهضوي المحافظ، بل راحوا يتهمون أنصاره بالنظرة الميكانيكية وقلة الوعي بشروط قيام النهضة التي ينشدونها حين يجعلون التراث القديم الذي يزداد عنا ابتعادا الشرط الأساسي الوحيد لمشروع النهضة والحداثة غير مبالين بالصيرورة التاريخية كأنهم يعيشون خارج حركة الزمان.

والواقع أن تشكيك هؤلاء لم يكن عن وعي

حقيقي بالتراث إنما صادرا عما قرؤوه وتعلموه من ثقافة عصر الضعف فعمموها وأسقطوها على كافة التراث كما أن ذلك ناجم مما قرؤوه من كتابات الناقمين الأجانب على هذا التراث [9]

والحقيقة أن كلتا النظريتين لا تخلوان من مغالاة، وتطرف ونقص ذلك أن اعتبار التراث الثقافي والإبداعي- برمته من غير إدراك حقيقي لخصوصيته وحدوده— مصدرا وحيدا لبناء النهضة والخروج من واقع التخلف دون فحص دقيق فيه مغالطات عديدة وإن مثل هذا الموقف المتطرف سيزيد حتما من التهوين والحط من قيمة التراث في عيون الفريق الخصم بما في هذا الحكم من مغالاة زائدة لأنه يفسر بالتزمت والانغلاق على الذات والخوف الزائد من الثقافة الغربيةوهو موقف غير سليم وغير مبرر تبريرا موضوعيا ذلك أن الطهطاوي الذي هو خريجالأزهر والذي يعد أحد أبرز رواد النهضة العربية لم ينبذ الثقافة الغربية في جملتها، ورغم وعيه بالخصوصية الثقافية للأممسوغ الأخذ منها وأكد على بعدها الإنساني في عدة جوانب، وقد نقل عن طريق الترجمة الكثير منها وكان دافعهإلى ذلك البحث عن التلاقح بالتراث الإنساني وإذا كانت حجة هؤلاء التمسك بتراث الأسلاف والاقتداء بفكرهم ومناهجهم، فان هؤلاء الأسلافأنفسهم قد تعاملوا مع مختلف الثقافات العالمية من هندية وفارسية ويونانية بروح التفتحوالتسامح، وأدخلوا منها الكثير في بنية الثقافة العربية الإسلامية دون أن ينسوا ثقافتهم أو يفقدوا شخصيتهم، وهم في عملهم ذلك قد أكدوابأنه» لا تناقضبين التمسك بتراث الأجدادالأصيل وبين الانفتاح الواعي على مختلف الثقافات والحضارات»...[10].

كما أن تلك الأصوات التي أدانت التراث بصفة عامة دون تمييز وراحت تدعو إلى التنكر له بالجملة لأنه في اعتقادها عبارة عن تلك الأوراق الصفراء التي تجاوزها الزمان، وأن هذه الأصوات بالرغم ما كان لها من دور في خلق وعي ثقافي جديد نير قد نسيت أن هذا التراث كان له أثر فعال في إيقاظ العقل الأوربي وكان أحد عوامل قيام تلك النهضة الأوروبية[11] التي يعجب بها هؤلاء والتي عاشت أمدا غير قليل تحت سلطة الكنيسة يحكمها الجهل والخرافات، وقد أدركالأوروبيونأنفسهمأهمية وقيمة هذا التراث وما فيه من كنوز معرفية، وما إقبال الدارسين المستشرقين عليه والجهود التي بذلوها وما زالوا يبذلونها والمسافات الطويلة التي يقطعونها والأموال التي يصرفونها لإحيائه ودراسته إلا دليل على قيمته وأهميته.

ولم يكن إقبالهم عليه لخدمته وحسب بل كان بدافع المنفعة لما وجدوا فيه من علم ومعرفة مازالت حية ممتدة تجاوزت حدود زمانها ومكانها، ولعل ما قام به الاستعمار من نهب ومصادرة للعديد من المؤلفات والمخطوطات التراثية العربية في مختلف ميادين المعرفةإلا دليلا على قيمته المستمرة[12] .

ومما يلاحظ في هذاالشأنأن بعض شعوب اليوم لا تملك مثل هذا الزاد العظيم الذي يمكنها أن ترتكز عليه ولترى وجهها وتاريخها فيه فراحت تفتعل لنفسها تراثا وتضخم من حجمه وقيمته وتزعم أنه تراثها لتبعث الثقة والزهو في نفوس أبنائها، وأن هناك دول تتباهى بتقدمها وتمدنها نراها اليوم منكبة على دراسة تراث غيرها وفي مقدمة ذلك التراث العربي لتستنير به في سيرها نحو مزيد من التقدم.

- **تصادم الأصولية العربية بالأصولية الحديثة الغربية:**

والحقيقة أن ذلك الخلاف وذلك التوتر في الحركة الفكرية النهضوية العربية حول تراثنا هو في الأساس صراع بين الأصولية التراثية العربية وبين الأصوليةالحداثية الغربية[13]، ذلك أن مفهوم الأصالة

والحداثة يختلف لدى الطرفين.

فالتحديد التقليدي المألوفللأصالة هو ما نبع أصلا من الشخصية العربية ويتمثل في الإبداعأو التراث الذي ابتكره العرب القدماء بأنفسهم دون أن يكون لذلك تأثير خارجي، ومنثم لا تعني الأصالةإلاالتأصل في هذا الأصل.[14]

ومن هذا انبثقت نظرة المثقف الناقد المحافظ إلى الأصالة, فالأصالة في منظوره إنما تشكل «وحدة أمة كاملة المنشأ، أما الفرد فكائن عابر يحفظ هذا الكمال ويشهد له، ليس دوره في أن يرفض أو يغير، بل هو في أن يقبل بهذه الأصالة بحيث تستمر وحدة الأمة وأحاديتها في التفكير والتعبير»[15]، وتصبح علاقة الحاضر بالماضي على هذا الأساس علاقة تابع بمتبوع كما يقول أدونيس أيضا: «ولا خيار أمام العربي المعاصر،إما الخضوع والتبعية لسلطان الماضيوهذاالاهتداء وإما رفض الخضوع وهذا هو المروق أو الخروج أي الإدانة»[16].

ويتجلى من هذه التحديدات أنالأصالة في أحد أبعادهاإنما تتحقق بالرجوع إلى ثقافة الماضي، وتفقد هذه الأصالة شروطهاإذا تركنا الماضي أو ابتعدنا عنه.

غير أن مفهوم الأصالة بهذا الشكل الذي يحصرها في الماضي ويربطها بفترة زمانية ضيقة محددة وثابتة هو مفهوم غير دقيق ومرفوض لدى أتباع الحداثة الغربية قد أثار غضبهم بل أدانوه بقوة لأنه كان لهم بمثابة تحد واستفزاز لأنالأصالة المقترنة بالماضيلا تحقق الحداثة في نظرهم كما هي في المجتمع الغربي، بل هي المعاصرة وقد ادخلوا مفهوم الأصالة التقليدي ضمن طبيعة الخطاب السلفي المحافظ المتشدد حيث تسود العاطفة والانفعال ويغيب العقل، ولذلك راحوا يتساءلون: كيف لا نبالي بما نرى ونسمع بأن تكون تلك الأوراق الصفراء القديمة تمثيلا لأصالةمزعومة[17]، وهم يريدون بموقفهم أن يعطوا الاعتبار الأول للحاضر المعيش، ويرون أن التراث العربي القديم ليس فيه ما يخدم هذا الحاضر، وإنما نجد ذلك في الحاضر الأوروبي المتطور ففيه ما يلبي حاجاتنا وما يشفي الغليل.

• التردد بين الأصالة العربية و الحداثة الغربية:

غير أن لهذا الخلاف والتوتر بعض الخلفيات والأسبابالأخرى، و لم يكن مجرد اختلاف في الرؤية الفكرية فحسب ذلك أن انفتاح المجتمعات العربية على الحضارة الغربية واحتكاك الثقافة العربية بالثقافة الأوروبية قد حدث عند بداية التحرشات الغربية للسيطرة على العديد من الأقطارالعربية، و لم يحدث ذلك الاحتكاك في ظروف الاستقرار والسلم والثقة المتبادلة بل في ظروف التحدي الحضاري والإرادة في إقصاء العرب من التاريخ.

يذكر قسطنطين رزيقأن التعاون المادي، والتواصل الثقافي بين الأمم يتم ويعطي ثماره» عندما يجري في جو من السلم والرضا والحرية والتفاهم، وأنه يفسد ويتعطل حين يحدث في ظلال الحرب أونتيجة قهر أو فرض أو كبت»[18].

إن مدى تأثر حضارة ما بأخرى مرتبط بموقف الأولى من الثانية فإذا كان ذلك تقديرا وإعجابا، وفي ظروف السلم والثقة المتبادلة والطمأنينة حدث التقارب، وتحققت الغاية منها والشروط لقبولها، أما في حال اللاسلمأواللاأمنفالنتيجة تكون عكسية، وهي الرفض والخوف والكراهية والانغلاق على الذات، وهو الأمر الذي حدث في حركية النهضة العربية، وقد علل طيب تيزيني ذلك بعامل الخوف من ثقافة الغرب وما سببته من تردد وتشويش في الرؤية قائلا: « إن تعثر النهضة العربية الحديثة وما نشأ من هذا التعثر من مشاكل حضارية وفكرية، وعلى رأسهاإشكاليةالأصالة والمعاصرة إن

ذلك راجع إلى الظروف الموضوعية التي حركت النهضة والتي جعلت من «ميكانيزم» النهضة فيها «ميكانيزما» للدفاع أيضا، وبالتالي فعملية الرجوع إلىالأصول،وإحياء التراث التي تتم في إطار نقدي ومن اجل التجاوز في حال النهضة قد تشابكت واندمجت في عملية الرجوع إلى الماضيفأصبح الماضي هنا مطلوبا ليس قصد الارتكاز عليه، والقفز إلى المستقبل وحسب بل أيضا بالدرجة الأولى من أجل تدعيم الحاضر،ومن أجل تأكيد الوجود وإثبات الذات أمام تهديد الآخر لها بإلغائها»[19]

وهذا يعني أن طرح قضية الأصالة في الفكر العربي الحديث لم يكن يهدف في بداية الأمرإلى رفض الحضارة الغربية الحديثة على ما فيها من عناصر وعوامل التقدم والازدهار بدليل أن الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده مثلا سوغوا الأخذ منها، وكانوا أول من دعا إلى مد اليد إليها وإنما كان السؤال المركزي في تفكيرهم والذي شكل علامة استفهام لدى العديد من إتباعهم في بداية الأمر هو: لماذا تأخرنا نحن المسلمون،وتقدم غيرنا؟ وكيف السبيل إلى النهوض والاقتراب من ركب الحضارة الحديثة؟

غير أن تحرشات الغربيين، وتهديداتهم وتسابقهم للهيمنة على المجتمعات العربية أعطى صورة مهزوزة ومشوهة ومزدوجة عن الغرب في عيون العرب، فهو عدو ظالم ونموذج لحضارة متطورة في الوقت ذاته الشيء الذي خلق تشويشاوترددا في مواقف رجال النهضة العربية فالتبس عليهم الأمر بين الرجوع إلى تراثهم كمحطة للانطلاق،والتشبث به وبأصالته للدفاع عن الهوية والحفاظ على الشخصية الوطنية، أوالانفتاح على الحداثة الغربية وهو الشيء الذي جعل حركة النهضة تكتسي جوا قلقا متوترا وتفرز عدة رؤى ومواقف انحصرت في مفهوم الأصالة و المعاصرة اللتين بقيت علاقتهمابين بين لا تقوم على التقارب ولا على التباعد.[20]

وهذه الحقيقة تضعف الزعم القائل بأن عامل الخلاف والصراع في فكر رموز النهضة العربية إنما هو بين نزعة التقليد والتجديد فقط، وإنما هو في حقيقته خلاف بين الخوف والرغبة: الخوف من تهديدات الغرب ومن عدوانه من جهة، والرغبة في الأخذ بثمار حضارته من جهة أخرى، وقد كانت هذه الثنائية مصدر ذلك التردد والجدل والخلاف حول الأصالة العربية والحداثة الغربية.

والحقيقة أن ذلك الجدال ما كان ليأخذ هذا الحجم من التوتر لو نظر الجميع من منظور واحد، وأطال هؤلاء النظر في حقيقة تراثهم دون تعصب وأحسنوا التمييز بين ما فيه من عناصر قد ذبلت، وما فيه من عناصر ما زالت صالحة للعطاء،وأحسنوا ربط العلاقة بينه وبين كل ما من شأنه أن يسهم في بعث نهضتنا من الثقافات الأخرى دون أن تشكل هذه الثقافات عنصرا ضارا،أو ضغطا أو تشويشا على شخصيتنا وقيمنا،ولكنهم لم يفعلوا ذلك لوجود اختلاف في المشارب الثقافية والتعليمية.

غير أن تقسيمنا لنخبة المثقفين إلى تيارين هو في الحقيقة تقسيم جزئي، لأن هذين التوجهين لم يعودا يشكلان وحدهما خريطة التوجه العام في فكر نهضتنا وفي النظرة إلى التراث، حيث أفرز ذلك الحوار المتباين تيارا ثالثاأصيلا ومتفتحا مستنيرا توسط الموقفين السابقين وهو الذي سعى إلى الربط و التوفيق بين الأصالة والمعاصرةمحاولا التوسط في الأمر بالنقاش الهادئ، حيث أدرك ضرورة الإفادة من ثمار الحضارة الغربية بوصفها تراثاإنسانيا مشتركا، وربط حركة نهضتها بروافد منها لتغذيتها بعناصر التقدم والسير مع روح العصر، ولكن دون إفراط لأن الغلو قد يفقد هذه اليقظة عناصر الأصالة التي هي الضمان لصحتها وسلامتها[21]، كما أدركأتباع هذه النظرة بوعيهم أن أية حركة فكرية ستكون

مفروضة وغريبة تماما: «إن هي اقتصرت على مجلوب مستعار لا تربطه صلته بجذورها الضاربة في أعماق التاريخ»22

ومثل هؤلاء الذين ساروا في هذا الخط كثيرون تملأ أسماؤهمالصفحات، فهؤلاء فرقوا بين المتغير والثابت في تراثهم، فالعقيدة وشرائعها وكذا القيم التي ينبغي الانتفاع بها ومراعاتها في السلوك اليومي هي ثوابت،أما ميادين الحياة الأخرى فلا حدود لها فهي متغيرة مع الظروف الحياتية23، وهي الواجب تمثلها و الإفادة منها.

تلك هي أهم معالم ومنطلقات هذا التيار الذي استمر ينمو، ويتوسع على يد تلامذة أولئك الرواد حيث أصبحأكبر تيار ضم رجالات الفكر والأدب، وقد استقطب معظم المثقفين ولم تبق إلا قلة منكمشة متعصبة للماضي وقلة منفتحة متعصبةلحضارة الغرب معجبة بها24، ولعل الأديب النابغ والدارس اللامع طه حسين يعد أحسن دليل على ذلك التيار التوفيقي فقد انتهى في توجهه الفكري يدعو الى الأصالة والمعاصرة بمد اليد إلى الثقافة الغربية.

فالحداثة لا تعني القطيعة مع التراثونعته بالأوراق الصفراء، فذلك موقف قائم على الجهل أو على التطرف والتعصب فنهضة الأممالأخرى لم تنطلق من الصفر ولم تحقق حداثتها بالاعتماد على غيرها إنما حققت ذلك بالانطلاق من تراثها أولا، فثقافة الغير الحية ضرورية كمكتسبات عصرية إضافية لكن ليست بوصفها ثقافة نذوب فيها أو نندمج فيها كغرباء، إنأسلافنا قد تركوا لنا مادة تراثية ضخمة مازالت تنبض بالحياة وتفيض بالعبر وهي جديرة بأن تكون عامل بناء وتغيير وتحث على الفعل والسلوك الحسن.

إن تراثنا يتضمن قيما، ومفاهيم و تصورات ثقافية وعلمية وردت من الثقافات الأخرى مما يجعله شموليا، تتحقق فيه الديمومة والاستمرارية ومواكبة الزمن رغم تفكك هياكله التحتية التي أنتجته لأن الهياكل الإيديولوجية العليا في التراث الحي كما يؤكد محمود أمين العالم تبقى وتستمر رغم تفكك الهياكل الاقتصادية والاجتماعية الدنيا، بل قد يبقى بعضها عبر مراحل تاريخية واجتماعية تختلف عن الظروف التاريخية والاجتماعية التي نشأتفيها، وبذلك يعلل بقاء القيم الأدبية الكلاسيكية في الأدبالإغريقي، وفي أدب شكسبير رغم ذهاب ظروفه التاريخية والإجتماعية.25

وهناك شبه إجماع لدى العديد من الدارسين في كيفية التعامل مع هذا الموروث، فقراءة التراث كما يؤكد زكي نجيب محمود ينبغي أن تكون قراءة نقدية واعية حداثية تنطلق من روح العصر وتراعي حاجاته، يقول كيفية ذلك:» إن الوقفة الصحيحة أن نعيد قراءته لنصنعه من جديد صنعا يتطلبه العصر فلا نحن تمسكنابه في جمود ولا نحن أهملناه».26

ولا يتصور نعيم اليافي أن تكون الغاية من البحث في التراث غير هذه الغاية حيث يلح على أن تكون وظيفته الأولى هي هذه قائلا:» إذاأردنا لتراثنا أن يكون عظيما أو يبقى عظيما ومقدسا فما علينا إلاأن نوظفه لخير إنسان العصر حتى يخدمه ويعمل على سعادته.27

إن تراثنا غني بعوامل الديمومة والقدرة على الفعل، وتذليل عقبات الحياة لكنه ليس برمته شيئا يلغي فيه عامل الزمان، إنما هو مجموعة تجارب، وتصورات وتساؤلات طرحها الأسلاف على أنفسهم ومجموعة من الحلول أوإجاباتعلى عقبات اعترضت حياتهم، وهذه التجارب والإجابات بعضها ذهب وانقضى بانقضاء ظروفه وزمانه وبعضها مازال من مقومات الحياة إلى اليوم فهل يعقل مثلا الاستغناء عما قال زهير في ذم الحرب ووصف أهوالها ونتائجها.

وما الحرْبُ إلّا ما عَلِمْتُمْ وذقتُمُ **
وما هو عنها بالحَديثِ المُرَجَّمِ !
متى تَبْعَثُوهَا، تَبْعَثُوهــا ذَمِيمةً **
وتَضْرَ، إذا ضَرَّيْتُموها، فتَضْرَم

إن عصرنا أصبحفي حاجة أكثر إلى هذه القيم،وهذه المواقف الإنسانية الداعية إلىالأمن والسلم الذي غاب بسبب الفتن والحروب التي أصبحت تعيشها مجتمعات اليوم.

وهل هناك أجمل مما قيل في حب الوطن والإخلاص له مما قال ابن الرومي:

ولي وطن آليت ألا أبيعــه **
وألا أرى غيري له الدهر مالكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه **
لها جسد إن بان غودرت هالكا

فلا يمكن لعاقل غير متعصب أن يزعم أن مثل هذا الشعر على ما فيه من عمق الصلة الروحية بالوطن شعر مستهلك قد تجاوزه الزمن لا يصلح اليوم.

إن ما يمكن استخلاصه من خلال ما طرحنا أن نظرة الدارسين والباحثين العرب المحدثين إلى التراث قد اختلفت وتباينت أحكامهم، فمنهم من جعله الأصل والمصدر الذي يعتمد عليه، ولا يسمح بتجاوزه لأن فيه الحلول والإجابات لكل التساؤلات والتحديات التي تواجه الإنسان في حياته.

وهناك من هرب وابتعد عنه وأنكره برمته دون فحص ودون معرفة علمية حقيقية بقيمته، واتخذ من الثقافة الغربية وبطريقة ميكانيكية بديلا عنه لما فيها في نظره من منجزات حضارية عصرية دون أن يحاول التوفيق بين التراث والحداثة، أو تحقيق التفاعل بين الأصالة و المعاصرة.

وهناك من أدرك ما في تراثنا من ثراء علمي ومعرفي إنساني عام، وأدرك كذلك ما في الحضارة الغربية الحديثة من فائدة ومن بعد إنساني لا يتعارض مع الثقافات الأخرى فسوغ الأخذ منها، واقبل عليها وعمل على إدخال بعض عناصرها في بنية الثقافة العربية، وهذه النظرة في نظرنا هي النظرة الموضوعية السديدة بالنظر إلى غيرها.

ولا خلاف بين هؤلاء حول الغاية رغم ذلك التباعد في الرؤى وجدوى التراث فكلها تجمع و تسعى باتجاهاتها ومواقفها إلى تفسير علة التخلف، وإيجاد سبل التغيير،وإنما تحمل في منطلقاتها ومشروعاتها اعتماد مناهج مختلفة في مدى فعاليتها ونجاعتها في تحقيق الغاية.

الهوامش:

1- ينظر: طيب تيزيني الفعل السلفوي ورد الفعل العصروي، جريدة الثورة، سوريا، عدد 6580 بتاريخ 1984/08/28.

2- ينظر المرجع نفسه.

3- محمد عابد الجابري: التراث وتحريات العصر في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ص 42.

4- ينظر مثلا أنور الجندي: المعارك الأدبية في الشعر والنثر، مطبعة الرسالة، القاهرة مصر، ونظر كذلك: سامح كريم: معارك طه حسين الأدبية والفكرية، دار بيروت، لبنان.

5- ينظر محمد عمارة: التراث في ضوء العقل/ ط1، دار الوحدة 1980 ص6.

6- نعيم اليافي: الشعر العربي الحديث والتراث، مجلة المعرفة، سوريا، عدد 319/312 عام 1989/1988، ص51.

7- ناصر الدين الأسد: التراث والمجتمع الجديد، بحث قدم إلى مؤتمر الأدباء العرب الخامس 21/16 سبتمبر 1965.

8- ينظر محمد عمارة: مرجع سابق، ص 197-198.

9- ينظر ناصر الدين الأسد مرجع سابق ص 12، 13.

10- ينظر محمد عمارة، مرجع سابق، ص 9.

11- ينظر مثلا محمد مفيد الشوباشي: رحلة الأدب العربي إلى أوروبا، دار المعارف، القاهرة، 1968، العرب والحضارة الأوروبية، وزارة الثقافة، القاهرة، 1961.

12- ينظر محمد عمارة، مرجع سابق، ص 172.

13- ينظر محمد عابد الجابري: التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، ص 42.

14- ينظر أدونيس: الثابت والمتحول، دار العودة، بيروت، لبنان، 1983، جزء 3، ص 141.

15- المرجع نفسه والصفحة.

16- المرجع نفسه والصفحة.

17- ينظر الطيب تيزيني، مرجع سابق.

18- نقلا عن الجابري: التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، ص40.

19- محمد عابد الجابري، التراث وتحديات الأمر في الوطن العربي، مرجع سابق ص40.

20- ينظر المرجع نفسه، ص 41.

21- ينظر عائشة عبد الرحمن، تراثنا بين الماضي والحاضر، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة 1968، ص 61.

22- ينظر المرجع نفسه، ص 62/61.

23- ينظر زكي نجيب محمود: مجتمع جديد أو الكارثة، دار الشروق، 1978، ص 73/72.

24- ينظر أحمد صدقي الدجاني: التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، مرجع سابق، ص 319/318.

25- ينظر محمود أمين العالم: ملاحظات نظرية في الأدب والثورة، مجلة « الأقلام» العراقية عدد 1973/12،ص 12.

26- زكي نجيب محمود، مرجع سابق، ص 73.

27- نعيم اليافي، مرجع سابق، ص 75.